

بالمقلوب

بقلم سمير قصير

جريدة النهار ١٥/٧/٢٠٠٠

أول درس يمكن استخلاصه من الاستفتاء الشعبي في سوريا هو اثباته قدرة السياسي العربي الجديد، مثله مثل القديم، على التأقلم مع العصر. ليس بمعنى التكيف مع المفاهيم الجديدة، اذ يكفي تكيفها كيفما اتفق. هاتوا مفهوم الشفافية. لا لبس فيه مبدئياً. في جميع اللغات والاقاليم، يعني الشيء نفسه: خضوع آليات القرار والتمثيل لرقابة من ليسوا في موقع الحكم. تلك هي الشفافية اينما كان، الا عندنا. فالعبرية السياسية العربية تريد الذهاب ابعد. تبغون شفافية؟ خذوا: خضوع من ليسوا في الحكم لرقابة آليات القرار والتمثيل! البدعة رائعة: صوتوا على المكشوف، فتكون الشفافية. بالمقلوب...

هكذا تضيع الفرص وتبُدد الانجازات. فبعدها تم توسيع مفهوم الشفافية بهذا الشكل، لن يستطيع احد تقدير الانجاز المتمثل بانزال نسبة الـ "نعم" الى ٩٧,٢٩ في المئة فقط. على العكس، ان تغليب "الشفافية" في الاقتراع يدفع الى التساؤل ان لم تكن الـ ٢٢,٤٣٩ "لا" رشّة للزينة، تدليلاً على ديموقراطية البيعة. فاذا وضعنا جانباً اقتراح رياض الترك الرمزي والعلني ضد ترشيح المرشح الأوحد، يلزم التسلح بخيال كبير لتصور ٢٢,٤٣٨ مواطناً سورياً آخر يتكفون مشقة الخروج من منازلهم ومواجهة حشد الموقعين بالدم في مراكز الاقتراع من اجل التعبير عن موقف مبدئي، ودون اي ضمان ان يحسب حساب لصوتهم حين كان اهل النعم يصوتون مرتين وثلاثاً، تأميناُ لنسبة ٩٤,٥٩ في المئة من المشاركة.

سؤال برسم العهد الجديد في سوريا: هل كان المرشح الاوحد لرئاسة الجمهورية العربية السورية بحاجة الى هذه الطقوس البائدة من الولاء حتى يمسك بزمام الحكم؟ قطعاً لا، فما دام الاستفتاء على ترشيحه من الكماليات، كان يستطيع بسهولة استهلال عهده بتغيير في الشكل على الاقل، وخصوصاً بعد الانتقادات التي اثيرت خارج سوريا (ولبنان) على آلية الوراثة الجمهورية.

سؤال برسم المستقبل: هل يستطيع الرئيس السوري المنتخب بالمبايعة تخطي الاوزار التي تلقىها عليه شعائر السياسة القديمة، والاستفتاء ليس الامثل على هذه الاوزار بعد مؤتمر حزب البعث وقبل جلسة مجلس الشعب المنعقد لاعلان نتائج الاقتراع "بالروح بالدم"، ان اراد تنفيذ الوعود الكثيرة التي قطعها بالنيابة عنه جمع من المروجين لعصرانيته؟

البداية السيئة لا تحكم سلفاً على كامل المسيرة، هذا مؤكد، لكنها تعطي صورة واضحة عن المعوقات التي سيواجهها الرئيس بشار الاسد في مسعاه التحديثي اذا تأكد. ولعله انتبه الى ذلك عندما قرر بعد الاستفتاء نزع صورته عن المباني الرسمية. الخطوة تهدف الى التصحيح، وهي لا ريب في الاتجاه الصائب، وان جاءت متأخرة. لكن الاعلان عن القرار لا يكفي ان لم يتابع تنفيذه، والا بقي جزئياً، كما يبدو، بعد يومين من الاعلان، من مظهر جدران بيروت ومن عدد السيارات والحافلات، الخاصة والعامة، اللبنانية والسورية، التي تحمل صورتني "سيد المستقبل"، والمقصود بذلك الرئيس الجديد، و"سيد التاريخ"، والمقصود ابوه الراحل. هنا لا بأس ربما على الرئيس السوري الجديد من الاتعاض من تجربة زميله اللبناني الذي لم يمنع قراره المماثل (اللاحق لتسلمه السلطة قبل سنة ونصف السنة) ان تظل تُقرش جدران العاصمة والاقاليم بصوره وتزدان الساحات والجسور باللافتات الحاملة آيات التمجيد له ولانجازات عهده. لم يفت الاوان بعد. فحتى لو كان الرئيس الجديد مضطراً لانتظار بعض الوقت كي يتمكن من تنظيم عملية انتخابية جديدة تمحو الانطباع السيئ الذي خلفته طقوس الاستفتاء، يستطيع منذ الآن اخذ اجراءات تعيد تجليس مفهوم الشفافية. فليبدأ مثلاً عهده الاسبوع المقبل بمبادرة واضحة في اتجاه اعادة حرية التعبير الى الصحافة السورية، وليقرن هذا الانفتاح الملحّ باطلاق السجناء السياسيين والسماح للمبعدين بالعودة، فيؤكد جميع السوريين عندها ان الرأي لم يعد جريمة وان المساءلة عادت ممكنة، وهي رديفة الشفافية.

بيد ان محو الاثار الوخيمة لطقوسية البصم بالدم التي كادت تحجب الجديد الآتي به، على ما يقال، الرئيس بشار الاسد، يتطلب ايضاً جهداً لبنانياً خاصاً، باعتبار تلازم المسارين الانتخابيين. لا حاجة للكثير هنا. يكفي ان يطلب الرئيس السوري من الحكومة اللبنانية اقالة محافظ البقاع، السيد ميلاد القارح، هذا الموظف اللبناني الذي لم يتوان عن التدخل في شؤون خاصة ببلد شقيق، بل ومتاخم للمحافظة التي اوّتمن على ادارتها، من خلال مشاركته، بصماً بالدم، في الاستفتاء السوري! فبالاضافة الى معاقبة محاولة التأثير على الناخبين السوريين (في لبنان)، سنفضي اقالة السيد القارح، اذا حدثت، الى ردع كل موظف آخر قد تسول له نفسه محاولة التأثير على الناخبين اللبنانيين، في الانتخابات النيابية المقبلة، وقد صار الرئيس بشار الاسد بحاجة اكثر من اي وقت مضى الى ان تغلب عليها الشفافية...

وليس بالمقلوب.